في الجحيم

لاناتول فرانس

نُقلت فجأة الى ظلمة عميقة تراوحت فيها اشباح هيئات غير ظاهرة ألقت فيّ الرعب · وبعد قليل اعتادت عيناي رؤية الظلام فابصرت عَلَى شاطىء نهر تتقلب امواجه الكبيرة شبحاً هائلاً يمثل رجلاً لابساً طربوشاً شرقياً وعَلَى كتفه مجذاف · فعرفت للحال انه عولس الداهية الحكيم · وكانت لحيته التي لا لون لها تتدلى من عارضيه · فشكا امره اليّ بصوت منطفىء قائلاً ·

— انا جائع ، وبصري ضعيف ، ونفسي كالدخان الثقيل الكثيف التائه في الظلمة · فمن لي بمن يسقيني دماً اسود كي استطيع ان اتذكر سفني الجميلة وزوجتي العفيفة وأمي ·

هنا أدركت انني في الجحيم ، فصممت ان ارتع فيه عَلَى أحسن ما يمكن مستعيناً عَلَى ذلك باوصاف الشعراء · فوجهت خطاي الى مرج لاح لي منه نور ضعيف لطيف · وبعد نصف ساعة صادفت اشباحاً اجتمعوا عَلَى ساحة يتحدثون · ورأيت هنالك ارواحاً من الشعوب والازمنة كلها · وعرفت ما بينهم فلاسفة كباراً جالسين بازاء متوحشين حقيرين · فاختبأت في ظلال شجرة غار واصغيت الى حديثهم ، فسمعت قبل الكل الفيلسوف

بيرون (١) يتساءل وقد وضع يديه عَلَى الرفش كأنه بستاني لاغش فيه ·

— ما هي النفس ؟

فبدأت الاشباح المحيطة به تجيبه دفعة واحدة

فقال افلاطون الالهي بلهجته اللطيفة الدقيقة ·

— النفس مثلثة · فالنفس الشكسة في المعدة ، والنفس المدركة في الرأس ، والنفس المشتهية في الصدر · وهي خالدة · والنساء لهن نفسان فقط اذ ينقصهن الادراك ·

فعارضه احد اباء المجمع الماكوني قائلاً

— اي افلاطون ، انك تتكلم كالوثني · ألا تعلم ان مجمع ماكون .. قرّر باكثرية الاصوات سنة ٥٨٥ ان الامرأة لها نفس خالدة · وعدا ذلك ن الامرأة بشر لان يسوع المسيح المولود من العذراء دعي في الانجيل ابن البشر ·

فهز ارسطو رأسه وأخذ يخاطب معلمه افلاطون شارحاً باحترام وقوة

— رأيي ؛ ايها الاستاذ افلاطون ، ان للانسان والحيوان خمس أنفس فالاولى — المتغذية ، والثانية — الشاعرة ، والثالثة — المحركة ، والرابعة — المتطلبة ، والخامسة — العاقلة · والنفس هي هيئة الجسد ، فاذا هلكت تجعله يهلك ·

---

(١) بيرون ـ احد فلاسفة اليونان الاقدمين · عاش بين سنة ٣٦٥ — ٢٧٥ قبل المسيح · وكان معاصراً الاسكندر المكدوني ورحل مع جنوده الى الهند

تضاربت الاراء واختلفت بين موافق ومعاكس ·

اوريجانيس (١) — النفس مادية ولها صورة

اوغسطين (٢) — النفس خالدة ولا جسم لها

هيغل (٣) — النفس مظهر غريب ، مقرر ، ذو علائق واتصال ببقية الاعضـاء ·

شوبنهاور (٤) — النفس مظهر الارادة الوقتي

متوحش من جزيرة بولينيز — النفس بخار · ودليل ذلك اني لما اشرفت عَلَى الموت ضغطت عَلَى انفي لتبقى النفس في جسدي ، ولكني لم أحكم سده فمتُ ·

امرأة من فلوريدا — لقد متُ عقيب الولادة · فوضعوا يد طفلي عَلَى شفتيَّ لتمنع نفسي من الخروج · ولكن ذلك جاء متأخراً ، فتملصت نفسي من بين اصابع الطفل الطاهر ·

ديكارت (٥) — لقد اثبت فيما مضى ببراهين مقنعة ان النفس روحية·

---

١ اوريجانيس — احد فلاسفة اللاهوت ومعلمي الكنيسة « ١٨٥—٢٥٤ » ولد في الاسكندرية وعلم في رومية وبلاد العرب وانطاكية وغيرها

٢ اوغسطين — احد اعاظم اباء الكنيسة الغربيين « ٣٥٤—٤٣٩ »

٣ هيغل — فيلسوف الماني مشهور « ١٧٧٠—١٨٣١ »

٤ شوبنهاور — فيلسوف الماني شهير « ١٧٨٨—١٨٦٠ »

٥ ديكارت — فيلسوف فرنساوي وضع الاساس للفلسفة الحديثة « ١٥٩٦—١٦٥٠ »

اما الجواب عن مصيرها ، فاحيلكم فيه عَلَى دغبي (١) فقد بحث في ذلك وألّف ·

لامتري (٢) — من هذا دغبي ؟ احضروه الى هنا

مينوس (٣) — حسناً ايها السادة ، سآمر بتفتيش الجحيم تفتيشاً مدققاً علنا نعثر عليه ·

البرت الكبير (٤) — لدينا ستة وثلاثون برهاناً عَلَى خلود النفس ، وثلاثون برهاناً ضدها · اذن قد ثبت خلودها باكثرية ستة اصوات

الجورب الجلدي (٥) — انّنفس الزعيم الشجاع لن تموت ، وكذلك لن يموت فأسه وغليونه ·

الرباني ابن ميمون — قد جآء في الكتب —

سيهلك الكافر ولا يبقى له اثر

اوغسطين — اخطأت ، ايها الرباني بن ميمون ، فقد جآء في الكتب — ان الخطاة يزجون في النار الابدية ·

---

١ دغبي — فيلسوف رحالة انكليزي « ١٦٠٣—١٦٦٥ » كان صديقاً لديكارت

٢ لامتري — فيلسوف طبيب فرنساوي « ١٧٠٩—١٧٥١ » اضطهد في بلاده فلجأ الى فردريك الكبير

٣ مينوس — قاضي الجحيم في خرافات اليونان

٤ البرت الكبير — احد اعاظم العلماء في الاجيال الوسطى « ١١٩٣—١٢٨٠ » شرح ارسطو

٥ الجورب الجلدي — احد زعماء هنود اميركا

اوريجانيس — نعم قد اخطأ ابن ميمون . فالخاطىء لا يُسحق بل يُحقّر فيصبح حقيراً ، صغيراً لا يشعر احد بوجوده . كذا يكون جزاء المحكوم عليهم . اما النفوس البارة فتندمج مع الله .

سكت — الموت يعيد الاشياء الى الله كالصوت اذ يذوب في الهواء .

بوسيويت — اوريجانيس وسكت يتفوهان امامنا باقوال شريرة مسممة بالضلالات . ان ما قيل في الكتب المقدسة عن العذابات الابدية يجب ان نفهمه بمعناه الحرفي الحقيقي . فان المحكوم عليهم سيظلون احياء الى الابد فيقاسون عذابات الموت ويتقلون في مجالسهم المتلظية بالنار الدائمة ويذوقون من العذابات ما لا يحتمل ولا يزول .

اوغسطين — علينا ان نفهم هذه الحقائق بمعناها الحرفي . فان جسد الخطاة نفسه سيظل معذباً الى ابد الابد . اما الاطفال الذين ماتوا ساعة ولادتهم او في احشاء امهاتهم فسيخلصون من هذه العذابات . بذا تقضي العدالة الالهية واذا صعب على البعض ان يصدقوا ان الاجساد المغموسة بالنار لا تحترق فهذا دليل على انهم جهلة لا يفقهون ان بعض الاجسام تحفظها النار مثل طائر الحجل . وقد عرفت ذلك بنفسي واقتنعت به بعد التجربة في غيبون حيث أعد لي طباخي أحدى هذه الطير وقدم لي نصفها طعاماً . فطلبت

سكت — مؤلف لاهوتي انكليزي نبغ في الجيل السادس عشر

بوسويت — خطيب لاهوتي كان واعظاً في بلاط فرنسا اشتهر بالتساهل ورغب في تقريب الكاثوليك من البروتستانت « ١٦٢٧—١٧٠٤ »

النصف الاخر بعد اسبوعين ، فاذا به صالح للاكل ، وقد حفظته النار كما تحفظ نيران الجحيم اجسام الخطاة ·

سومانغالا — كل ما تتفوهون به هو من اساطير الغرب المظلم · والحقيقة ان الانفس تتقمص في اجسام متنوعة قبل ان تصل الى نرڤانا (بلاد السعادة) حيث تنتهي كل مصائب الكون · وقد تقمص غاوتاما خمسمئة وخمسين مرة قبل اتيخ له ان يصير بوذا · فكان ملكاً وعبداً وقرداً وفيلاً وغراباً وضفدعاً وشجرة ·

الجامعة — مثلما يموت الانسان تموت الحيوانات · كلها تتنفس تنفساً واحداً · وليس الانسان باعظم من الحيوان ·

تاسيت — ان كلاماً كهذا لجدير بان تقوله شفتا يهودي تربى في العبودية · اما انا فاقول لكم كروماني · ان نفوس الوطنيين العظام غير فانية · هذا كل ما يجوز لنا ان نقوله · اما هؤلاء الاقوام فيهينون الالهة العظام باعتقادهم ان الالهة يمنحون الخلود لارواح العبيد والمعتوقين

شيشرون — وآسفاه يا ولدي ، ان كل الاقاويل التي ذُكرت عن الجحيم لبهتان · واذا كنت انا خالداً فليس خلودي الا بذكرى اعمالي التي تبقى الى الابد ·

سومانغالا — حكيم هندي

تاسيت — مؤرخ روماني

شيشرون — خطيب وحكيم روماني

سقراط — انا أومن بخلود النفس. وما احلى ان يعمل الانسان بالرجاء ويظل مشغوفاً بذلك في نفسه .

فكتور كوزن — عزيزي سقراط ، ان خلود النفس ضرورة ادبية كما سبقت وبرهنت عن ذلك . ان الفضيلة لمسألة منطيقية غريزية . فلو كانت النفس غير خالدة لما نالت الفضيلة جزاءها ، بل لما كان الله آلهاً لو لم يعتن بالهامي مواضيع محادثاتي الفرنسوية

سينيكا — أتلك اقوال حكيم ؟ ألا فاعلم ايها الفيلسوف الغالي ان جزاء الاعمال الصالحة في الاعمال نفسها . وافهم ، اصلحك الله ، انه ليس من مكافأة جديرة خارج الفضائل نفسها .

افلاطون — ولكن لا بد من وجود قصاصات او مكافآت الهية . ان نفس الخاطىء تنتقل بعد الموت الى جسم حيوان منحط كالفرس او بقر الماء او الامرأة . اما نفس الحكيم فتختلط بمصاف الالهة

پاپينيان — لقد أثبت افلاطون ان العدالة الالهية في الحياة المقبلة تصنح ما افسدته العدالة الانسانية . ولكن الامر بالعكس ، فانه لحسن ، عملاً بنظام الشرائع ، ان يتمم الناس الذين قضت عليهم العدالة الارضية ظلماً قصاصهم في الجحيم ، لان هذا مما يهم العدالة الانسانية ، والا لاهتزت شرائعها وفسدت أنظمتها فيما لو أبطلت احكامها العدالة الالهية

فكتور كوزن — فيلسوف فرنسوي « ١٧٩٢—١٨٦٧ »
سينيكا — فيلسوف روماني كان مؤدباً لنيرون

رجل من الاسكيمو — الله يظهر صلاحه للاغنياء ، ولكنه شديد الوطأة على الفقراء . فهو يحب الاغنياء ويكره الفقراء ، ولذلك يجلس الاغنياء في الجنة ويزج الفقراء في جهنم

بوذي صيني — اعلموا ، يا هؤلاء ، أن لكل انسان نفسين ، احداهما صالحة تتحد مع الله ، والاخرى شريرة يُحكم عليها بالعذاب

شيخ من تارنت — بعيشكم ، يا حكماء العصور ، اخبروني انا الشيخ صديق البساتين ، هل للحيوانات أنفس ؟

ديكارت ومالبرانش — كلا ، فانها آلات

ارسطو — بل هي حيوانات ، ونفوسها مثل نفوسنا ، ولها اتفاق مع اعضائها .

ابيكور — أي ، ارسطو ، ان نفوسها ، لحسن حظها ، كنفوسنا فانية ، غير خالدة . فانتظروا بصبر ايها الاشباح العزيزون ، في هذه الرياض يوماً تفقدون به الحياة وعذاباتها . وناموا سلفاً بسلام لا يعكره شيء

بيرون — ما هي الحياة ؟

كلودبرنار — الحياة هي الموت .

فسأل بيرون ايضاً — ما هو الموت ؟

مالبرانش — فيلسوف فرنساوي « ١٦٣٨—١٧١٥ »

ابيكور — فيلسوف يوناني قديم « ٣٤١—٢٧٠ ق.م »

كلودبرنار — فيلسوف طبيعي فرنساوي « ١٨١٣—١٨٧٨ »

فلم يجبه أحد · وتفرقت جماعة الاشباح كالسحابة التي تطردها الريح فخيل لي اني بقيت وحدي عَلَى ذلك المرج ، ولكني ما عتمت ان رأيت بقربي منيبوس فعرفته من هيئته المجونية وسروره · فقلت له

— ألا قل لي ، يا منيبوس ، كيف يتحدث هؤلاء الاموات عن الموت كأنهم لا يعلمونه ؟ ولماذا يا ترى ، هم يجهلون مصير البشر كأنهم لا يزالون عَلَى الارض؟

فاجابني قائلاً ·

— انهم كما ترى لانهم لا يزالون قابلين الموت ، مشابهين البشر · اما متى اصبحوا خالدين فلا يستطيعون ان يتكلموا او يفتكروا بل يصبحون كالالهة ·

منيبوس — من كبار فلاسفة اليونان المعارضين المناقضين الاداب العمومية · ولد في سوريا في الجيل الاول قبل المسيح وتتلمذ لديوجانيس